

إن نشأة الرواية الجزائرية الحديثة غير مفصولة عن نشأة الرواية في الوطن العربي كله، الرواية العربية ومنها الجزائرية بالرواية الأوروبية، كما أن هذه النشأة تختلف في ظروفها من قطر عربي إلى آخر، غير أن جذورها مشتركة، ترجع إلى القصص القرآني والسيرة النبوية، كما أنها تعود إلى مقامات بديع 898هـ) ومقامات الحريري 111هـ) الزمان الهمداني 818هـ) الإنجليزية والفرنسية والألمانية فضال عن الفارسية والتركية. إن اتصال العرب في العصر الحديث بالغرب أنتج تأثيرا كبيرا بالمناهج الغربية الحديثة والنظريات الأدبية والفكرية والفلسفية التي أدت إلى ثورة في املجال الأدبي والفني عند الغربيين وكان لها انعكاس واضح على ثقافة الأدباء والمفكرين العرب الذين أتاحت لهم فرصة الدراسة في الغرب أو الحياة لمدة زمنية هناك، «فنشأة الرواية العربية ومنها الجزائرية لم تأت من فراغ، إذن، فهي ذات تقاليد فنية وفكرية في حضارتها، كما أنها ذات صلة تأثيرية ما بهذا الفن كما عرفته (أوروبا) في العصر الحديث، خصوصا بعد شيوع مصطلح الواقعية¹». ومن الروايات التي تؤرخ للرواية الجزائرية الحديثة رواية "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة. وهي الرواية التي يكاد يجمع عليها الدارسون والنقاد بأنها البداية الفعلية للرواية الجزائرية الناطقة باللغة العربية. كتبت هذه الرواية أثناء مرحلة سياسية حساسة وخاصة في تاريخ الدولة الجزائرية المستقلة، صدرت هذه الرواية في 1 (نوفمبر 0911م) في نفس السنة التي تم فيها التحضير لإصدار قانون الثورة الزراعية الصادر وقد جرت أحداثها في الريف، بمنطقة تقترب من الهضاب العليا بين جنوب الوطن وشماله، حيث تقبع قرية رعوية صغيرة يقطنها (عابد بن القاض ي) ذو الأراض ي الفالحية والغنام²». وتتمحور هذه الرواية حول هذه الشخصية الملحورية التي تمثل مالك الأرض الذي يستحوذ على كل ش يء ويحرم من حوله وينتهز كل فرصة ألغراضه الشخصية في الوقت الذي جاء فيه قانون الثورة الزراعية مضادا لطموحاته الامتناحية. إل أنها الفترة التي تكثف فيها الإنتاج باللغة العربية وكانت تأسيسا سمح بظهور وتكوين كوكبة من الأدباء، أصبحت لهم مكانة محترمة³». 2- اتجاهات الرواية الجزائرية: اتخذت الرواية الجزائرية منذ نشأتها اتجاهات مختلفة تبعا لمواقف سياسة أو فكرية وقد كان للتوجه السياسي السائد في البالد أثرا بالغا في توجه الفكر والأدب وهذا أمر طبيعي، فألأدب انعكاس للواقع وعادة ما تؤثر السياسة في الواقع سلبا وإيجابا. «لقد سايرت الرواية الجزائرية الواقع، ونقلت مختلف التغيرات التي طرأت على املجتمع بحكم الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغيير، ومن المالحظ أن الرواية الجزائرية قد صبغت بصبغة ثورية، خاصة الثورة ضد الاستعمار، كما سايرت النظام الاشتراكي وهذا ما نجده في عقد السبعينات، ودخلت الرواية في ما بعد مرحلة جديدة فيها ثورة ونضال وانهازام، "ففي مرحلة السبعينات تأكد الخطاب السياسي والأيدولوجي الذي كان حاضرا بقوة في وسائل الإعلام وفي الواقع اليومي؛ حالها حال القصة القصيرة، فأصبح للرواية بعدا اجتماعيا تدل عليه أدق التفاصيل فيها؛ «إذ العمل الأدبي يوحى بدالته تلك منذ قراءة عنوانه، فأنت عندما ترى "الح إوات والقصر" على صفحة الغالف، بين املحكوم والحاكم، والقامع إلى غير ذلك مما يجعلك تحتل منذ البداية عالقة غير متكافئة بين الطرفين²». أما مرحلة الثمانينات والتسعينات، فقد لوحظ تحول في مسار الرواية نحو محاولة تجاوز المواضيع الثورية بالمفهوم الاجتماعي إلى ثورة على مستوى الأفكار في تجربة تسعى إلى تخطي المألوف بسبب تغير الأوضاع السياسية وتدهور الحالة الاقتصادية مما أنتج صراعا أيدولوجيا عصف بالحياة الفكرية والأدبية. وفي هذه المرحلة توجه الروائيون نحو الشرق أو نحو الغرب ليجدوا لهم مكانة بين هؤلاء أو أولئك رغبة في التطور والتغيير. «ولعل الإضافة النوعية التي جاءت بها البنيوية هي أنها نبهت إلى ضرورة انتشار الأدب من الفجاجة الواقعية والتسطيح ومكنت النقاد من استخدام أدوات راقية في التعامل مع النصوص³». مما أدى بالروائيين والنقاد على حد سواء يتجهون نحو تجديد النص الأدبي والسمو به إبداعيا وفنيا؛ نذكر رواية واسيني الأعرج "وقع الأحذية الخشنة" سنة 0980م، ورواية "نوار اللوز" سنة 0881م، استثمر فيها التناس مع تغريبة ابن هالل وكتاب "المقريي" "إغاثة أألمة لكشف الغمة¹ . اتسمت الأعمال الروائية في الثمانينات بخاصة بسمة التمرد أو الرغبة في التمرد على الواقع وعلى القيم السائدة وعلى كل ما هو نمطي، وحتى على املحظور في أحيان كثيرة. فرواية "زمن التمرد" للحبیب السایح سنة 0981م، تدل من عنوانها على هذا المفهوم، ونذكر على سبيل المثال رواية "عزوز الكابراڤ" لمرزاق بقطاش سنة 0989م، التي «يقف فيها شيخ الجامع وهو شخصية من شخصيات الرواية يعد رمز للتيار السلفي المتضامن مع النزعة الوطنية، ألنه في رأيه ال يعلم الأطفال ما ينبغي تعليمه وهو أن يعلمهم الحقيقة وكذا التمرد على حاكم مثل "عزوز الكابراڤ²». "على أن هذه السمة تعد سمة عامة، مع وجود عدد من الروايات التي لم تختلف عن روايات النشأة في سذاجتها وواقعيتها المفرطة. استمرت الكتابة الروائية في التسعينات بخطى متعثرة، لكنها مثلت انجاها جديدا فرضه الواقع المتأزم، على الرغم من أن إرهاصات هذا التوجه الجديد كانت بادياته منذ الثمانينات التي كانت حبلی بالتغییرات الهائلة التي عصفت بالجزائر وشعبها من شتی النواحي. وسواء كان أستاذًا أم كاتبًا أم صحفيا أم رساما أم

موظفا، فإنهم يشتركون جميعا في المطاردة والتخفي وهم يشعرون دوماً أن الموت يالحقهم³». ومن الرويات التي مثلت هذه المرحلة نذكر على سبيل المثال؛ رواية "سيدة المقام" لواسيني ألعرج، ورواية "تاء الخجل" لفضيلة فاروق، ورواية "الشمعة والدهاليز للظاهر وطار، كلها روايات كتبت في العشرية السوداء وصورت الواقع الفظيع الذي عاشه الشعب الجزائري بمختلف أطيافه وطبقاته. والواقع أن مرحلة التسعينات تجلت فيها ملحنة وفرضت حضورها بقوة في الكتابة الأدبية⁴. تطورت الرواية الجزائرية منذ نشأتها، فتتبع مسارا متصاعدا من حيث الجماليات الفنية؛ بحيث انتقلت تدريجيا من البساطة واللغة المباشرة التي تصف الواقع أو تعيد تصويره بطريقة بدائية بعيدة عن الرؤية الفنية المبدعة في كثير من الأحيان إلى اللغة الفنية التي توحى بأكثر من معنى وتجنح إلى عوالم خفية جمع الروائيون بين الإبداع واتجاه املجتمع إلى الاستقرار، الاستقرار والسياسة فجاءت رواياتهم مثقلة بالهم السياسي ومعبرة عنه في أغلب الأحوال. وإغراق الرواية في هذا الجانب أفقدها كثيرا من فنياتها. وبدأت أعمال هذه الفترة تأريخا لكل المتغيرات والتطورات التي وقعت في الجزائر. وذلك أن أكثر الروائيين انخرطوا في المدرسة الواقعية الاشتراكية. في الثمانينات تغير كثيرا حال الرواية الجزائرية، وجمالياتها اللغوية بدأت في التطور مستفيدة من تقنيات الرواية الجديدة على الصعيدين العربي والعالمي. لكن هذا الوجود ليس مفصولا تماما عن الذات المبدعة أو تحركه حتمية ميكانيكية، قائمة المصادر والمراجع: ● أبو القاسم سعد الله. دراسات في الأدب الجزائري الحديث.